التنشئة الاجتماعية للطفل في ضوء البيئة الطبيعية السليمة

د. عمر لعويرة*

تنافس المشكلات البيئية في الصحف والمجلات وفي برامج الإذاعة والتلفزيون، وفي وسائل الإعلام والتعليم الأخرى، بحيث تصل إلى ملاين الناس في كل مكان. والعلاقات بين الإنسان والبيئة تثير اهتمام الأفراد في كثير من التخصصات والمجالات، في الهندسة المعمارية، وفي التخطيط الإقليمي وتخطيط المدن، وفي الهندسة المدنية والهندسة الصحية، في الجغرافيا والبيولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس. والحق أن هناك قلة من المجالات– إن وجدت – لاتمس العلاقة بين الإنسان وبيئته عند نقطة أو أخرى.

إننا نسمع الكثير عن تلوث الماء والهواء، وعن إفساد البيئة الطبيعية وتدميرها، وعن الضوضاء والزحام، غير أننا نسمع القليل عن الأفعال الإيجابية عن استعادة أو إحياء مناطق طبيعية، وعن تجديد المناطق المتخلفة من المدن، وعن تقدم في تصميم البيئة، ومع ذلك فقد انصرف اهتمامنا إلى آثار الإنسان في البيئة، بدرجة أكبر عن انصرافه إلى دراسة كيفية تأثير البيئة والتغيرات التي يحدثها الإنسان فيها على السلوك. والعلماء السلوكيون يهتمون منذ فترة ليست بالقصيرة بهذا المجال...

البيئة الفيزيقية:

تحدث علماء النفس عن دور البيئة في تشكيل السلوك، وغلب على تفكيرهم البيئة الاجتماعية وبيئة العلاقات بين الأشخاص، واشتمل مفهومهم عن البيئة على مجموعات من

---

* أستاذ التعليم العالي بجامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة.

شروط الخبرة ذات تنوع كبير، تتراوح مابين أساليب التعلم والتعليم في رياض الأطفال وممارسات الآباء في تنشئة الأطفال، وما بين توفير الممارسة والتدريب في أحد الأعمال، والدور الذي تؤديه الثقافة في المجتمع بالمعنى الكلي. وعلى الرغم من السلوك يتأثر أيضا بالبيئة الفيزيقية إلا أن هذه العلاقة لم تلق إلا اهتماما ضئيلا إلى وقت قريب.

ويقصد بالبيئة الفيزيقية بالمعنى الشامل كل شيء يحيط بالإنسان، واللفظ له معنى أكثر تحديدا، حيث يقسم علماء النفس البيئة الفيزيقية إلى نمطين:

- بيئة يبنيها الإنسان أو يعدلها.
- وبيئة طبيعية.

والبيئة التي يبنيها الإنسان أو يعدلها تشمل أشياء كثيرة، ومن الجوانب التي تثير اهتمام الباحثين العلاقة بين سلوك الإنسان وملامح البيئة التي يشكلها الإنسان، مثل غرف البناء التي يحدث فيها السلوك.

والعلاقة بين الأنماط المختلفة من المساكن والسلوك، وتصميم المؤسسات وكيف تؤثر خصائص ذلك التصميم في السلوك وتعدله، وأثر العيش في المدن على السلوك. ولقد أدت ملامح البيئة التي أقامها الإنسان إلى التلوث والزحام، و إلى نتائج أخرى غير مرغوب فيها.

أما البيئة الطبيعية فهي المنتزهات والبراري والسهول الطبيعية التي لم يطرأ عليها تعديل من طرف الإنسان. وقد تناولت بعض البحوث العلاقة بين السلوك وهذه الأنواع من البيئيات.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن استخدام مصطلح: البيئة الطبيعية بهذه الطريقة يختلف عن طريقة استخدامه من قبل علماء النفس.فقد يستخدمون اللفظ ويقصدون به الموقف الذي

يعيشه الطفل داخل البيت مثلا أو في المدرسة. فدراسة سلوك الأطفال في حجرة الدراسة هي دراسة السلوك في بيئة طبيعية.

الرضيع ومرحلة الطفولة المبكرة:

بالنسبة للمولود الجديد تصبح بيئته أول مصدر للتعلم عن الأشياء والناس، وعادة ما تكون في المستشفى، وينتقل نعدها الرضيع مباشرة إلى المحيط العائلي الذي يشكل نموه في السنين العديدة التالية، ولكنه على أي حال ليس وعاء خاليا، فالأطفال يولدون ولديهم مجال واسع من الحركات المنعكسة أو الاستجابات والكثير من الاختلافات الفردية التي تتضمن الاستجابة للمؤترات الخارجية.

وأول قضية نؤكد عليها في البداية هي تلك العلاقة بين هذا الطفل الصغير وبيئته، ففي أثناء استغلاله لعالمه وفي تحركاته في الوسط الذي يعيش فيه يتعلم الطفل أن ينظم بيئته كعالم من المعاني والعلاقات وليس (1968, stone and Church) مجموعة من الأشياء فقد (ستون وتشرش، ولكنه مازال عالما يكون الطفل هو مركزه، ويتعلم منه بالتدريج أن يفر في نفسه كشيء منفصل، Egocentrism هذا السلوك بالأنوية Piagetبياجيه ويسمى، وكما يقول ستون وتشرش يتمركز عالم الطفل حول نفسه دون أن يدرك أنه فعلا في المركز. وحتى سن الخامسة لا يميز الطفل بين المستويات المختلفة للوقع البيئي، فكل شيء حقيقي بنفس الطريقة الأحلام والإحساس والأشياء المادية الكلمات والصور والقواعد والناس.

وإلى جانب الاستقبال السلبي للبيانات الحسية والاستجابة لها يسعى الرضيع بالنشاط إلى الإثارة وكثيرا من هذه المثيرات يدور حول الرضيع والراحة الجسمية، فترتبط استجابته باحتياجاته الأساسية، ولكنه يسعى مع ذلك للإثارة حبا فيها. وعندما تمر الأشياء أمامه يكون هناك مجهود للرؤية واللمس والذوق تحريك هذه الأشياء والخبرات هنا مجزية رغم أنها ليست بالضرورة في إطار إشباع الطفل المادي. وقد أكد الباحثون أن الأطفال في سن السنة تقريبا يحاولون تغيير وضع حظيرة لعب حتى يمكنهم أن يروا الأشياء التي)

Smith and Smith , 1962 لاتتظهر لهـــم بأكملهـــا (سميت وسميت، والاستشارة الحس حركية في الطفولة ضرورية للنمو العقلي فيما بعد، وملاحظات عالم النفس السويسري جان بياجيه تؤيد هذا الفرض، ففي السنتين الأوليين من العمر يبدأ الأطفال التعلم باستخدام حواسهم وحركاتهم بالمرحلة الحس حركية في النمو العقلي. ففي تلك المرحلة ينمو الكثير إمكانيات تجهيز المعلومات وحل المشكلات، فباستخدام عيونهم وآذانهم وتصرفاتهم يتعلم الأطفال على سبيل المثال أن سلوكهم له نتائج معينة،

وأن تلك الأشياء وأولئك الناس الذين لا يستطيعون رؤيتهم يستمرون في البقاء، وأثناء تلك المرحلة يتعلم الأطفال اللغة.

ونوعية الاستشارة الاجتماعية المبكرة للطفل تسهم في تشكيل شخصية الفرد، فقد أظهرت أبحاث وغيرهما من الباحثين أن استجابة Alan Sroufe وألان سرو ف Mary Ainsxorth ماري أنزورث الوالدين لها أثر ذو دلالة في نمو الكفاءة، فعندما يتفاعل القائمون على الرعاية بحس مرهف مع حجات الطفل الفردية وإيقاعاته ودرجة نشاطه (والتي تقاس خلال الأسابيع الأولى من حياته) فإن الصغار يميلون إلى تكوين علاقات مودة آمنة، ويساعد وجود الوالدين هؤلاء الأطفال على استكشاف المواقف الجديدة، في حين أن ترك الأهل للطفل والابتعاد عنه يصيبه الانزعاج والبكاء ويقابل عودتهم بالابتهاج، وعندئذ يعاود اللمس واكتشاف الأشياء مرة أخرى. وعند الشهر الثاني عشر يميل هؤلاء الأطفال في مدارس الحضارة إلى أن يكونوا عاطفيين ونشطين اجتماعيين، محبين للاستطلاع ومهتمين بالتعلم، وفي مقابل ذلك فإن الأطفال الذين هم أطراف في علاقات قلقة مع الوالدين يبدون كفاءات أقل تحت نفس الظروف.ولعل هذه الاستجابة من قبل الوالدين لأطفالهم تعلم الصغار أنهم يملكون تأثيرا على البيئة

ويستطيعون مواجهة التجارب الجديدة في وجود القائم على رعايتهم وتترجم هذه الثقة في سن الرشد إلى ثقة في النفس.

وكمستكشفين نشطين ببيئتهم يسعد الأطفال بما يحققون، وبالتدريج يدرك الطفل أنه والعالم الذي حوله ليسا شيئا واحدا، وبطرقة محدودة جدا. ولأنه يبدأ في تعلم الاعتماد على عالمه والثقة فيه يحقق الطفل أول خطوة نحو الاستقلالية، وهذا في حد ذاته يتواكب مع قدرته على الحبو ثم الإقدام على بعض خطوات في حذر بما يعتبر مقياسا لنمو هويته الذاتية، وهو يسعى إلى خلق تجاربه الخاصة عن طريق الذهاب إلى بيئة يبدو أنها موجودة لمجرد انه يحبوعليها، يتسلقها تتسع دائرة خبراته ومثيراته وأماكنه فيتعلم التعرف على الوسط واستخدام الأشياء في هذا الوسط، وباختصار يتعلم كيف يتحكم فيما يحيط به.

والخلاصة أن فرصة استكشاف الوسط والأشياء وصيفاته وعلاقاتها مهمة جدا بنمو الاعتماد على النفس والمعرفة المبكرة. فالطفل الذي مازال يتعثر في مشيه ينتبه إلى كل التفاصيل الصغيرة، وهو محب للاستطلاع قبل كل شيء، فهو يلاحظ ويستطيع أن يلتقط الدبابيس الضالة والمسامير الضائعة، ولكنه في نفس الوقت يصل إلى الأشياء الثمينة القابلة لكسر والتي يفترض أنها ليست في متناول يده، ويتعلم الطفل التعرف على الأشياء وتسميتها.

تأثير الحرمان من الأم والمثيرات:

أجريت عدة دراسات في الماضي على تأثير غياب الأم على الأطفال الصغار، وكان نتيجة هذه الدراسات أن معظم هذه المؤسسات اتخذت قرار التخلص من تربية الأطفال الأصحاء في مختلف البلدان، وقد بذلت المجهود لإيجاد عائلات تتبنى الأطفال الذين يفتقرون للآباء الطبيعيين. وسواء أكان الافتقار إلى رعاية الأم أو إلى المثيرات الخارجية أو كليهما، فإن الأطفال الذين يجدون أنفسهم في مواضع كئيبة في المؤسسات، يصابون

بأضرار عاطفية وعقلية لاترى في الأطفال الذين يوضعون في رعاية الأسرة التي، تتبناهم. وقد سجلت الأعمال الكلاسيكية لبولبي Bowlby (1953) وسبتز Spitz (1945) الافتقار إلى العاطفة والتأخر في النمو اللغوي وغيرها من الأضرار العقلية لدى هؤلاء الأطفال. وكشفت أعمال بروفنس وليبتون Provence and Lepton (1962) أن المؤسسات التي كان مستوى الصحة والتغذية فيها كافيين ولكن المثيرات كانت على أدنى مستوى كشفت عن تأخر حاد في السلوكات التي تحتاج إلى التفاعل مع الكبار.

ومع ذلك فقد ثبت أن عناية الأم الزائدة أو التشجيع من الأم البديلة يخفف من آثار الحياة في المؤسسات، وفي الحالات التي يعود فيها الطفل إلى بيت طبيعي بعد طبيعي بعد أن يكون أمضى وقتا في مؤسسة ما تختفي أعراض الحرمان الحادة. وهذا يوحي بأن البيئة التي تتصف بالرعاية الاجتماعية والتشجيع ضرورية للنمو الصحي المبكر عند الطفل، ويعزز هذا الرأي اكتشافات المحللين النفسيين بخصوص تأثير العلاقة بين الأم والطفل في السنوات المبكرة من حياته. ولكن في السنوات الأخيرة اتجه المزيد من الاهتمام إلى عوامل أخرى في البيئة تشير إلى أن تباين المثيرات المادية إلى جانب فرص اللعب والتفاعل الاجتماعي يمكن أن تكون على نفس المستوى من الأهمية.

وفي تقرير كتبه " سبتز Spitz (1945) عن النمو الجسمي والنفسي لعدد من الأطفال ربوا في بيت للقطاء، وكانت أعمارهم تتراوح بين سنتين وأربع سنوات، ظهر أن خمسة من واحد وعشرين طفلا كانوا عاجزين تماما عن المشي، وأن خمسة فقط كانوا قادرين على المشي دون مساعدة، وكان اثنا عشر منهم عاجزين عن إطعام أنفسهم بالملعقة، وأن واحدا فقط كان قادرا على القيام بإلباس نفسه، وأنه ما من واحد منهم كان مدربا على التحكم في إخراج الفضلات، وأن ستة منهم كانوا عاجزين عن الكلام،

وواحد فقط كان في استطاعته استخدام الجمل، وكان لمعظم هؤلاء الأطفال مظهر جسدي لا يتناسب مع من هم نصف عمرهم، مع العلم بأن ما من واحد من هؤلاء الأطفال كانت تساء معاملته، فلقد كانت العناية الطبية التي يتلقونها ممتازة، وكان طعامهم جيدا ولم يتعرضوا لأي أذى أو إصابة. لكن الأمر غير السوي الوحيد في تاريخ حياتهم هو قلة الإثارة الاجتماعية في سن حياتهم الأولى، ونظرا لحرمانهم من الجو العائلي الطبيعي.

وبالرغم من الاهتمام والرعاية التي يتم بها رعاية هؤلاء اللقطاء، إلا أن عملية النمو لم تسر على الوجه الصحيح، رغما عن أن العناية الطبية فائقة، والتغذية جيدة، والاهتمام بهم واضح، لكن الطفل حديث الولادة في حاجة إلى الشعور والإحساس بالأمان، وهو لا يشبع هذا الإحساس إلا من خلال صدر أمه، سواء بالرضاعة الطبيعية أو بالإحساس الطبيعي لتلك الأم، لذا فالبيئة هنا رغم أنها بيئة فيها كل الرعاية إلا إنها لا تتلاءم مع البيئة الطبيعية التي تزخر بعناية الأمومة، والشعور بالأمن والراحة.

وفي دراسة قام بها جولد فارب Gold Fard (**1945**)، أجرى فيها مقارنة بين النمو العقلي عند الأطفال الذين انتقلوا إلى بيوت التبني بعد قضاء ثلاث سنوات في المؤسسات والنمو العقلي عند الأطفال الذين عاشوا حياتهم منذ البداية في بيوت التبني، ورغم أن ذكاء الأمهات الطبيعيات في المجموعة الأولى أعلى من الذكاء لدى المجموعة الثانية، إلا أنه أتضح أن الأطفال الذين تربوا المؤسسات تقهقروا بدرجة كبيرة عند البلوغ وفي سن المراهقة المبكرة عن زملائهم الذين عاشوا في بيوت التبني وذلك من ناحية القدرات العقلية، وقد أرجع "جولد فارب" هذا الاختلاف إلى الفرص المتاحة في بيوت التبني من حيث التشجيع الاجتماعي والخبرات الحسية والتي تفتقر إليها المؤسسات. وقد أوضح "بياجيه" إن النمو العقلي يعتمد اعتمادا كبيرا على نوع وكم التشجيع وخواصه في بيئة الطفل المبكرة. فالذي يؤدي إلى بناء النمو العقلي ليس عنصر الأمومة فقط ولكنه

الافتقار إلى التفاعلات التشجيعية(بياجيه وانهلدر Piaget and Inhelder) 1969). وتذكر اسكالونا Escalona (1959-1968) أن البحث في المؤثرات الضارة للحياة المبكرة في المؤسسات يكشف عن أهمية ثراء الخبرات الحسية الفنية كاللعب، والمناظر والأصوات المشوقة، وفرص الاشتراك في النشاطات المناسبة لسن الطفل حتى تساعده على التغلب على أعراض الحرمان.

والنتيجة أن البلاد التي يتمتع أطفال المؤسسات فيها بالرعاية الشخصية الكبيرة وحيث تكون البيئة فيها غنية بالمشجعات الحسية لا توجد اختلافات هامة بين هؤلاء الأطفال والأطفال الذين يربون في عائلات.

والنتيجة التي تخرج بها من هذه الدراسات هي أن " الحرمان من الأم ورعايتها " أكثر بكثير من مجرد غياب صورة الأم، إذ يمكن أن يحدث في وجود الأم كما هو الحال في الحالات الإهمال الذريع.

فالمسألة تتضمن أكثر من مجرد الحنان والاهتمام، فالبيئة المحيطة تلعب دورا هاما، فأسس التعلم وهي الحافز والاستجابة والجزاء كلها ترتبط تماما بالفرص التي تتوفر في الموقع أو لا تتوفر، والبيئة الغنية بالحسيات في الطفولة المبكرة تعد الطفولة للتعقيدات الحسية التي سيقابلها الشخص في حياته فيما بعد، فالطفل يكون فكرة عن بيئته لاعن طريق تجزئتها وتمييز أجزائها فحسب بل عن طريق تركيبها أيضا وتكوين كل موحد منها في مخيلته، والأدوات التي يستخدمها في ذلك سواء أكان هذا العمل فعليا أم فكريا فقط تصبح فيما بعد عناصر حاسمة في نموه المعرفي.

ومند لحظة الولادة يصل العالم إلى الطفل عن طريق الأشخاص المهمين في محيطه. فبيئة الطفل تتكون من تأثير الناس والمكان مجتمعين، وعن طريق تفاعلات مع الأشخاص المهمين يتعلم الطفل سلوكيات اجتماعية مناسبة تتلاءم مع نموه الفسيولوجي من ناحية كاختلال

توازن يحتاج إلى إشباع، ومن ناحية أخرى كضغط اجتماعي. فعملية الإرضاع تعلم الرضيع عدة دروس عن أقرب المؤسسات إليه وهي العائلات.

وفي عملية إشباع الجوع يمتص الطفل أنماط سلوك الأكل ويذوق الأنواع المناسبة منه ويتعلم طريقة الأكل والرضع الواجب اتخاذه، والأدوات التي يجب عليه إيقان استعمالها أي أنه يتلقى كمية ضخمة من المعلومات الاجتماعية والتكنولوجية.

وفي المعتاد تبدأ الطفولة عندما يترك الرضيع مرحلة الاعتماد الكلي على الغير، ويبدأ في دفع نفسه إلى العالم على قدميه. وبهذا التغير الجوهري في طريقة حياة الطفل يتغير مغزى البيئة له. فالطفل لا يقصر استكشافه على الموضع المباشر، ولكنه يبدأ البحث عن أشياء جديدة ومساحات جديدة، فيوسع بالتدريج مجال احتكاكه ومؤثراته. وهذا العالم الجديد الخاص به يتضح ويظهر إذا اشترك الطفل في حضانة يومية أو برنامج رعاية خارجية. وأيضا بهذا الموضع الرسمي يمكن أن يصبح الطفل أكثر استقلالا واعتمادا على نفسه عن طريق اتساع دائرة الصداقات والخبرات الاجتماعية لأنه يتعرض لقيم خارج منزله.

وظيفة اللعب:

الذي نعرفه بالتأكيد هو أن اللعب خبرة أو أساسية في نمو الطفولة، وأنه يحدث بوضوح في إطار البيئة. فالبيئة يمكن أن تعززه أو تقف حائلا دونه أو تتحداه، أو ربما تأخذ موقفا محايدا منه. وعلى مستوى مرحلة ما قبل المدرسة يحتل اللعب معظم أوقات استيقاظ الطفل. وهذه ظاهرة عالمية توحي بأن اللعب خطوة ضرورية في نمو الطفل ما بين فترة اعتماده الكلي على الغير وفترة الاستقلال النسبي في المدرسة، ولكن حتى الرضيع نفسه يأتي بأفعال كثيرا ما توصف لعب سواء أكانت استكشاف جسمه أو سريره أو الأشياء الموضوعة حوله. ويبدو أن مثل هذه السلوكيات تحدث عندما يتم إشباع احتياجات الطفل وفي غياب أينوع من القلق.

وعندما يبدأ الطفل في الحبو ثم المشي يستطيع الطفل أن يبسط نفوذه على العالم الذي يحيط به إذ يتحرك في الموقع البيئي بكثير من الحرية. وبما أن الكثير من اللعب يأتي نتيجة لاستشارة حب الاستطلاع عنده، فهو أيضا طريقة لمعرفته بالبيئة وبمكانه فيها، وطبيعة معظم النشاطات التي تقوم على التقليد (لعبة البيت ولعبة الطبيب وغيرها)، كلها تحاول أن تدخل عالم الكبار في أبعاد خيالية تمكن الطفل من التعامل معها بطريقته الخاصة. ففي بعض الأحيان يمكن للطفل أن يحل المشكلات عن طريق اللعب الخيالي، كمشكلات خوفه وصراعا ته أو الصعوبات التي يقابلها في عالم الناس. ويصبح العب وسيلة يمكن عن طريقها ممارسة استقلاليته، ويكون التخيل هنا سهلا بالنسبة للطفل لأن استقلاله عن العالم ليس كاملا بعد. والوظيفة التي يؤديها لعب الأطفال، أنه يكسب الطفل مهارات جسمية مختلفة، فالقفز والجري والتسلق والتزحلق، والتسابق، وإصابة الهدف وما يشبه ذلك يكسب الطفل قدرات حركية على جانب كبير من الأهمية، وكذلك نجد أن اللعب بالماء والرمل والطين والأدوات الحادة منها وغير الحادة يمكن الطفل من اكتساب معرفة دقيقة بخصائص الأشياء التي تحيط به، وبهذا لا يقتصر اللعب في فائدته على كسب المهارة الحركية وإنما يمتد إلى كسب القدرة على فهم العالم المادي. اللعب الجماعي يكسب الطفل القدرة على التعاون مع زملائه، ويتعلم الأخذ والعطاء، ويكتسب القدرة على فهمهم وفهم نفسه. ونجد فوق ذلك أن اللعب يعطي فرصة لشعور الطفل بقدرته.

اعتبر بياجيه (1970) اللعب خطوة ضرورية في نمو الذكاء، يعتبر اللعب عملية نشيطة متبادلة بين الفرد والبيئة التي تتضمن ثلاثة أوجه مختلفة، فعن طريق امتصاص المعلومات يجعلها الفرد جزءا من نفسه بنفس الطريقة التي يهضم بها الطعام.

وفي عملية تكيفه مع العالم الخارجي يحاول الفرد تعديل أفعاله لكي تلائم الواقع، وهذا يؤدي إلى أن يفهم العالم ويستوعبه بطريقة أفضل وبدرجة أكبر، وعندما تتوازن هاتان

العمليتان يكون الفرد قد تكيف مع بيئته. ومثل هذه التعديلات تتغير باستمرار طبقا للنشاطات التي ينهمك فيها الفرد.

وبالنسبة لبياجيه يعتبر اللعب استيعابا بدون ملاءمة، فالبيئة هنا تستخدم لمجرد إشباع حاجات الطفل المؤقتة، ولا ضرورة للتواؤم معها فهي موجودة للعب بها. مع التأكيد على أن مثل هذا السلوك الذي يبدو طفو ليا يخدم وظيفة هامة في التعلم، ويكون اللعب في هذه المرحلة تخيلا أو كما يسميه بياجيه "رمزيا" «Symbolic» ذلك أن الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة يستخدم بيئته كشكل من أشكال التدريب الحسي الحركي، وبعد سن الثانية وعندما تصبح البيئة أكثر تمثيلا حيث تظهر في هيئة صور في مخيلته يساعده اللعب على تنظيم تفكيره ويكون الواقع مشوها إلى حد كبير في اللعب لأن الطفل لا يملك فكرة واضحة عن ماهية الواقع، ولا يحس بحاجته إلى التوافق معه.

وهذا المظهر من العب يبدأ في الاختفاء تدريجيا كلما كبر الطفل ليغلب عليه الألعاب الأكثر تعقيدا وتنظيما والتي تتم وفقا للقواعد وعلى أساس التناسق. ويحل الواقع الجماعي محل الخيال الفردي، فتقل حاجة الطفل إلى تشويه الحقيقة أو استخدام البدائل الرمزية، لأن الطفل نفسه يصبح متلائما مع طبيعة العالم الاجتماعي والفيزيائي الواقعي، وقد ركز بياجيه على دور اللعب في النمو المعرفي، وانه وسيلة الطفل للتعامل مع بيئته.

ومهما كان سبب اللعب فله عدة معان ومنافع بيئية في نمو الطفل، إذ يقدم للطفل المتعة الحية (كما في المراجيح) وينمي المهارات (كالتعامل أو استخدام بعض الأشياء المادية)، ويشجع على الابتكار (كما في الرسم وصياغة التماثيل) واللعب بالنسبة للطفل عملية مستمرة، لها أهداف ونتائج مختلفة، بعضها عاطفي والآخر معرفي، وكثيرا ما يتداخل بعضها في بعض، ويتعلم الطفل أيضا أشياء عن دوره الجنسي في العالم دون أن يترك ذلك ويشجعه على ذلك مواد اللعب المقدمة له والنشاطات الموافق عليها، ومقدار

الحرية المسموح له بها في استكشاف بيئته. واللعب هنا جزء متكامل من نمو الطفل الكلي وليست كما يرى بياجيه مجرد نموه المعرفي.

النمو المعرفي:

يتعلم الطفل في سني حياته منذ السادسة إلى سن الثانية عشرة أن يتعامل مع الأفكار والمفاهيم، وإلى حد ما الأشياء المجردة، وتزداد سرعة نموه لغويا كما تتطور المهارات اللفظية باستمرار ويتعلم كشخص اجتماعي مع رفاقه بقدر ما يتعلم من مدرسيه وعائلته.

السلوكيون يرون أن الفرد يتميز بين المؤثرات المختلفة فيستجيب لتلك التي تشبع احتياجا مباشرا أو طويل الأمد، والفرد يسعى لاختيار الخبرات والاستجابات التي تقدم أنواعا من الرضا والإشباع ويتجنب المؤثرات التي تتسبب في الألم وعدم الرضا. والسلوكيون ينظرون إلى الطفل على أنه وعاء فارغ تملؤه الخبرات والتجارب البيئية، والمعرفة ماهي إلا نتاج لهذه الخبرات ونموها.

لكن بياجيه « Piaget » يرى أن المعرفة نتاج للتفاعل المستمر بين الشخص و العالم الخارجي. ويعتمد التعلم بالنسبة لبياجيه على ما يسميه بالتنظيم الداخلي التقدمي أو النمائي. فتعلم كيف تفكر ليس مجرد نتيجة لتراكم المعلومات بل القدرة على استخدام هذه المعلومات بطرق دائمة النمو في تراكيب الأبنية العقلية.

وبمعنى أعم: كلنا يولد ولدينا القدرة على تنظيم خبراتنا بطرق منطقية مختلفة، ويتوقف ذلك على تفاعلنا وتكيفنا مع العالم الخارجي. فالنضج البيولوجي لا يفعل أكثر من فتح الطريق للأبنية الممكنة، وعلى الشخص أن يحقق ذلك. وهذا لا يصبح واقعا إلا طبقا لمرحلة الاستعداد عند الفرد، فالطفل مثلا ليس لديه مفهوم "حفظ الأشياء"، فاللعبة التي تؤخذ منه تضيع إلى الأبد وتكرار عودة اللعب وأبعادها لا يغير من اعتقاده بأن الشيء لم يعد له وجود وعند سن معين (12 شهرا تقريبا) فقط تترجم هذه التجربة إلى

شكل أساسي من التفكير، فيفهم الطفل أن اللعبة قد أخذت أو وضعت في مكان آخر، ويطلق بياجيه على هذا بالاسبصار المفاجيء والذي يحدث مع مزيد من المواقف المعقدة كلما تقدمنا في العمر"القدرة على الاستجابة".

مثل هذه القدرة ليست آلية، بل هي مبنية على الخبرات السابقة بالبيئة، ولكن الخبرة في حد ذاتها لا تخلق القدرة التي تتزايد مع تحركنا إلى أعلى في جدول النمو.

ويقول بياجيه (1980) أن التفكير عملية ابتكارية تنسأ من الكائن الحي وليست مجرد استجابة أو رد فعل لمؤثر، فنحن نبني خبرة ولسنا مجرد مستقبلين سلبيين لها. ولكنه يحذر من أن الأفكار ليست فطرية ولا المنطق أيضا. وقد أوضح بياجيه في مئات من التجارب أنه حتى مرحلة معينة لا يستطيع الطفل تفهم المعنى الحقيقي للأشياء والعلاقاتها، فنفس كمية الماء مثلا في الكوب الواسع، والمنطق صفة مميزة أخرى تنمو على مراحل، وكذلك فهم الطفل للحركة والحجم والفراغ والوقت.

وينمي الطفل في الفترة التي يبلغ فيها عمره مابين سنة ونصف وست سنوات نوعا أو شكلا من الذكاء " قبل إجرائي " وهو هنا لا يستطيع أن يرى الأشياء منفصلة عنه. وفي فترة المدارسة الابتدائية سيكون في استطاعته أن يفكر بعيدا عن أفعاله هو ولكن في إطار عمليات "ملموسة" أو أشياء معينة أو مواقف وأشخاص (فهو يتعلم الجمع والطرح مثلا عن طريق عد الأشياء المادية)، وعندما يصل سن البلوغ يستطيع أن يفكر بطريقة أكثر تجريدا، ولكن هذا لا يعني أن تفكير المراهق يصل على جودة تفكير الكبار.

وقد قسم بياجيه Piaget مراحل النمو المعرفي عند الفرد إلى هذه المراحل:

1 ــ مرحلة النشاط الحسي الحركي: يستطيع الطفل أثناء هذه المرحلة أن يحاكي استجابات جديدة ومعقدة بدقة تامة حتى في غياب النموذج الذي يحاكيه، فالطفل الذي يشاهد أحد رفاقه في اللعب في أحد نوبات غضبه قد يقوم بتقليده بعد ذلك بأيام قليلة،

وللنجاح في هذا العمل يجب أن يكون الطفل قد اختزن صورة عقلية ما لهذا الفعل الذي يحاكيه . فالمحاكاة المرجأة تشير إلى أن الطفل قد بدأ في تكوين تمثيلات بسيطة للأحداث أثناء العام الأول والثاني.

2 ــ مرحلة ما قبل العمليات: وتبدأ تقريبا منذ السنة الثانية وحتى سبعة أعوام للطفل، ويعتمد فيها الأطفال على إدراكهم للواقع. وغالبا ما يحلون المشكلات بمعالجتهم للأشياء المحسوسة. فقد يحدد الطفل بسهولة الصندوق الأكبر من ثلاثة صناديق لكنهم يلاقون مشقة كبيرة في حل الصور الأكثر تجريدا. ويستطيع الطفل في هذه المرحلة أن يستخدم الخيال. ويستطيع أن يصنف بعض الأشياء طبقا للونها أو حجمها أو شكلها. ويصف بياجيه تفكير الأطفال في هذه المرحلة بأنه متمركز حول الذات لأنهم يترعون إلى رؤية وفهم العالم من منظورهم الخاص بهم .

3 ــ مرحلة العمليات المحسوسة: وتبدأ من سن السابعة تقريبا حتى الحادية عشرة، حيث تنمو لدى الأطفال القدرة على استخدام المنطق ويكتسب الطفل القدرة على الإجراء الذهني للعمليات التي كان يؤديها حرفيا قبل ذلك. فالأطفال الأكبر سنا والذين اكتسبوا بعض المهارات المعرفية التي يطلق عليها بياجيه العمليات المحسوسة يستطيعون أن يحسبوا عدد العصي عقليا. ويتمتع الأطفال بقدر كبير على المنطق في حلهم للمشكلات، ويؤدي ذلك إلى ازدياد قدرتهم على التصنيف ويتمكن طفل العمليات المحسوسة من معرفة أن الصفات الحسية مثل الحجم والشكل يمكن أن تتغير دون أن تتأثر صفات أساسية مثل الكم، فإذا صب عصير البرتقال من زجاجة قصيرة واسعة إلى أخرى طويلة، فإن الطفل يستنتج هنا أن كمية العصير لم تتغير لعدم استبعاد شيء منه. وعلى النقيض يعتقد طفل مرحلة ما قبل العمليات أن مقدار العصير ازداد لأن مستواه في الزجاجة أصبح أكثر ارتفاعا. ويميل أطفال هذه المرحلة إلى حل المشكلات والخطاء بدلا من إتباع استراتيجية فعالة مثل التفكير في عدة حلول ممكنة، واستبعاد غير الصالح منها.

4 ــ مرحلة العمليات الصورية: وتبدأ من سن الحادية عشر حتى الخامسة عشرة تقريبا. وفي أثناء هذه السنوات تتطور لدى الأطفال القدرة على فهم المنطق المجرد ، أي أنهم يفكرون في عملية التفكير نفسها، ويكون الفرد قادرا على توليد بدائل كثيرة لنفس المشكلة ويقومون بالتحقق الذهني من صحة هذه البدائل. ويختبرون الاتساق المنطقي لمعتقداتهم. وفي نهاية هذه الفترة يكون لدى الأطفال نفس القدرة العقلية الموجودة لدى الراشدين. وأهمية هذه المرحلة أن رؤيتنا للعالم تتغير عندما نتعلم أن نحل الرموز محل الأشياء الملموسة، وتتغير مفاهيمنا بتغير سلوكنا. فالعالم الذي نره ليس هو العالم الذي كنا نراه ونحن أطفال. فنحن كأطفال نفتقر إلى التمييز بين الذات والفراغ حولنا، ومعرفتنا به ناتجة عن أفعالنا فيه، وككبار نعرف العالم بطريقة أكثر تجريدا في خصائصه الشكلية والمنطقية.

منذ سن السابعة أو الثامنة تنمو عند الطفل فكرة عن المحيط المفاهيمي منفصلة عن المحيط التمثيلي الذي يبدأ في سن الثانية تقريبا والمجال والمحيط التمثيلي هو صورة الطفل للعالم الناتجة عن نظرته إليه إذا كان فعلا يتصرف في إطار علاقاته بها. ويؤدي به هذا التمثيل للبيئة بالتدريج إلى بناء ما يسميه بياجيه " بالمحيط المفاهيمي" فالأشياء وعلاقاتها لم تعد ترى فقط في إطار " التقليد ا لم.... " بل تكتسب صفة التمثيل الكلي. ويقول بياجيه أن هذا ممكن لأن الطفل في سن السابعة أو الثامنة يصبح " لا مركزيا " ففي استطاعته أن يرى الأشياء بطريقة مترابطة متسقة. وفي استطاعته أن يستكشف كل أوجهها. وكلما تقدم الطفل في السن يساعده فهمه للمقاييس والمتطورات والنسب على إدراك أن العلم المرئي يوجد لغيره لا له فقط. وعندما يحدث ذلك يصبح المحيط أو المجال مفهوما مجردا أو فكرة. وهذا لا يحدث إلا بعد أن يصل الطفل إلى سن المراهقة.